الصراع من أجل الوجود

نشأة الفلسفة الاجتماعية الحديثة[1]

ترجمة: نورالدين علوش– المغرب

يعتبر الفيلسوف اكسل هونيث ممثل الجيل الثالث لمدرسة فرانكفورت ولعل المكانة المرجعية المتميزة التي لم يفتأ يحتلها هذا الفيلسوف في السنوات الأخيرة ,ترجع لكونه استطاع بجدارة عالية القيام بتنظير فلسفي لا مثيل له لمفهوم الاعتراف وبخاصة بعد ظهور كتابه العمدة : "الصراع من اجل الاعتراف"سنة 1993 وهو الكتاب الذي أعطى لهونيث شهرة واسعة في الأوساط الفلسفية الغربية القارية والانغلوسكسونية ؛دفعت الكثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع إلى الدخول في نقاشات وسجالات معه بخصوص براديغمه الجديد.

الجدير بالإشارة أن الهدف من براديغم الاعتراف هو تأسيس نظرية معيارية للمجتمع لتحيين او تجديد النظرية النقدية الأولى.على هذا الأساس قام في كتابه الصراع من اجل الاعتراف بإعادة بناء التجربة الاجتماعية, انطلاقا من أشكال الاعتراف التذاوتي التي يعتبرها هونيث مؤسسة للهوية حتى تحقق الذات وجودها داخل نسيج العلاقات الاجتماعية وهو بذلك يتفق فيما يخص بضرورة الانتقال من فكرة الذات في العلاقات الاجتماعية والمؤسسات إلى التذاوت الحديثة

[1] كتاب الصراع من اجل الاعتراف للفيلسوف اكسل هونيث الجزء الاول منشورات سيرف 2010 ترجمة بيير روش ص13 حتى 17

وبمختلف تمظرهاتها كالعمل والتفاعل والتنشئة الاجتماعية. ومع أن هونيث قد أشاد بما يسمى بالمنعطف التواصلي لهابرماس الذي أعاد تحيين النظرية النقدية من جديد ؛غير انه بقي متحفظا على اختزال هابرماس للحياة الاجتماعية إلى البعد اللغوي والتمركز حول اللغة قد يحجب عنها حقيقة التفاعلات المجتمعية ويؤدي هذا إلى عدم القدرة على إدراك التجارب الاجتماعية والأخلاقية المرتبطة بأشكال الظلم والاحتقار وعدم الاعتراف بالا فراد أو الجماعات . لذلك حاول هونيث إعادة إدماج بنيوي لأشكال الصراعات الاجتماعية وأنماط التجربة الأخلاقية المعاشة ضمن نموذج معياري للاعتراف المتبادل الذي استلهمه من نموذج هيغل وعمقه من خلال أعمال هربرت ميد .

النص المترجم: لم تظهر الفلسفة الاجتماعية الحديثة إلا مع بداية فهمنا للحياة الاجتماعية كعلاقة مؤسسة على الصراع من اجل الوجود.أشار ميكيافليي في كتاباته السياسية إلى فكرة مفادها : أن ليس الأفراد فقط من يدخلون في مواجهة للدفاع عن مصالحهم بل كذلك المجموعات السياسية المتنافسة؛ وفي نفس السياق أعاد هوبز هذه الفكرة واعتمدها أساسا لنظريته التعاقدية لسيادة الدولة.فهذا الرؤية الجديدة " للصراع من اجل الوجود" ما كان لها أن تفرض نفسها لو لا أن بعض المكونات المركزية للمذهب السياسي التقليدي فقدت قوتها الاقناعية.

منذ النظرية الكلاسيكية لأرسطو إلى الحق الطبيعي القروسطوي، تم إدراك الإنسان ككائن اجتماعي لا يمكنه تحقيق طبيعته إلا في إطار جماعة سياسية؛فقط المدينة أو الحاضرة التي بخلاف تركيبها الوظيفي للأنشطة الاقتصادية تتأسس على قيم مشتركة للجماعة.

تسمح بتطور كبير للنزعة الاجتماعية للطبيعة البشرية. مع ذلك الانطلاق من أي تصور تيولوجي للإنسان تم منح المذهب التقليدي للسياسة مهمة الفحص وتحديد على المستوى النظري للنظام الأخلاقي للسلوك الفاضل ومن داخله يتم التكوين العملي.

يكن حتى القول بان تربية للفرد يمكنا أن تجر بطريقة مناسبة؛ لهذا إن علم السياسة في الوقت نفسه هو تأمل نظري حول كيف ستكون المؤسسات والقوانين، ومذهب للحياة الطيبة والعادلة.

إن صيرورة تحول البنيات الاجتماعية التي بدأت في نهاية العصر الوسيط ووصلت إلى الأوج خلال النهضة؛لا تثير فينا شكا بالنسبة لمكونين النظريين للمذهب التقليدي السياسي وإنما تقوض قوته الفكرية.مع إدخال التقنيات الجديدة للتجارة، ,تطور فن الطباعة،والصناعة، أخيرا تحرر الإمارات والمدن التجارية تجاوزت الحياة الاقتصادية السياسية الإطار الحمائي للتقاليد التي ليس من المكن دراستها فقط باعتبارها نظاما معياريا للسلوك لفاضل.

ليس من المدهش أن الانتقال من المذهب السياسي الكلاسيكي إلى الفلسفة الاجتماعية الحديثة قد هيئ لها على المستوى النظري هنا حيث كانت تحولان البنيات الاجتماعية قد تمت بكل وضوح؛في جمهورية فلورنسا حيث كان سفيرها المغضوب عليه نيكولا ميكيافيلي قد كتب في رسائله السياسية التي حملت بالجديد وقطعت مع المقدمات الانثربولوجية للمذهب السياسي التقليدي؛ وقدمت تصورا للإنسان باعتباره أنانيا ولا يهتم إلا بمصالحه.

محاولا في كتاباته إيجاد طريقة تمكن مجموعة سياسية من الحفاظ على نفسها وعلى نفوذها ' استطاع بذلك ميكيافيلي وضع أسس انطولوجية جديدة اجتماعية تفترض وجود عداء دائم بين الناس؛فبسبب الكبرياء والمجد يجد الناس استراتيجيات جديدة للنجاح مما يدفعهم إلى الوعي بأنانية مصالحهم وإحساسهم بالحذر وعم الثقة المتبادلة بينهم.

فهذا الصراع الدائم من اجل الوجود ينسج شبكة معقدة من التفاعلات الإستراتيجية التي من خلالها ينظر ميكيافيلي للحالة البدائية للحياة الاجتماعية؛المقولات الأساسية في تحليلاته المقارنة تستجيب لهذه الحقيقة ؛بحيث أنها لا تحدد إلا الافتراضات البنيوية لامتحان الفعال للسلطة. حتى عندما يعيد التذكير بالمفاهيم الأساسية للتاريخ الروماني ويتحدث مثلا عن الثروة والفضيل، فإنه لا يهدف من خلال هذا سوى العوامل الثانية التي ظهرت من وجهة نظر الفاعل السياسي باعتبارها موارد غير متحكم فيها عليه الاهتمام بها في حساباته الإستراتيجية.

المسالة الأساسية في الدراسات التاريخية لميكيافيلي هي دائما معرفة كيف أن هذا الصراع الدائم بين الناس يكن استغلاله من طرف السلطة السياسية ,هكذا تفرض قناعة نفسها للمرة الأولى حتى في صورة التطورات التاريخية لكن باستقلالية عن أي قاعدة نظرية عميقة القناعة بان الفعل الاجتماعي يتحرك على أساس صراع دائم للناس للحفاظ عل وجودهم.

فالسنوات الكبيرة التي تفصل بين هوبز وميكيافيلي كافية لإعطاء هذه القناعة الانطولوجية الأساسية الشكل الناضج للفرضية العلمية. لكن هوبز يمتاز عن ميكيافيلي بمعاصرته لصيرورة تشكل الدولة الحديثة وتوسع التبادلات التجارية ؛كما انه اعتمد كثيرا على المنهج العلوم التجريبية الذي حقق نجاحا باهرا بفضل أعمال غاليلي وفلسفة ديكارت.

في دراسته الموسعة التي من خلالها عرض "قوانين الحياة المدنية " لإعطاء قاعدة نظرية قوية لأية سياسية مستقبلية المقدمات الانثربولوجية التي أخذها ميكيافيلي من خلال الملاحظات اليومية أصبحت ألان تأخذ شكل معلنات علمية حول الطبيعة الفردية للكائن الإنساني:هذا الأخير الذي يقدمه هوبز بطريقة ميكانيكية باعتباره اوتوماتيكي مسيرا لنفسه إذن يتميز بقدرته على صياغة مستقبل سعادته.إذن فهذا الموقف التوقعي يرتكز منذ لحظة أن الإنسان يواجه شبيهه ومثيله فهذا يدفعه إلى الرغبة في زيادة قوته يحجبها عن منافسه.

كل فرد عليه أن يبقى غريبا مثل نواياه التي لا يطلع عليها احد.مما يجعلها يدخلان في صراع من اجل توسيع قوتهما حتى يتمكن احدهما من صد هجوم الآخر.من هذه الفكرة المخالفة للنزعة الأرسطية اخذ هوبز في الجزء الثاني من كتابه فكرة الحالة الوهمية التي يسميها الطبيعة.كما وضح ذلك غونتر بوك بجلاء.

مذهب حالة الطبيعة ليس إجراءا يستهدف الوصف بغض النظر عن أي بعد تاريخي الحالة الاجتماعية البدائية حيث تنحدر منها صيرورة الجمعنة الإنسانية.؛ فهو بالعكس يستهدف تقديم الشرط العام للإنسانية حيث ستحرر للحياة الاجتماعية اليوم من أي مراقبة سياسية:

فالطبيعة البشرية الموسومة بموقف متزايد وقائي لقوة الفرد إزاء الأخر . فالعلاقات الاجتماعية التي تنتج عن هذا التحرر تقدم طابع الحرب الكل ضد الكل.وظف هوبز في الجزء الثالث من كتابه هذا البناء النظري باعتباره أساسا فلسفيا لنظريته الخاصة حول سيادة الدولة.: فالآثار السلبية الناجمة عن الحرب الكل ضد الكل تنجم عنها أن الخضوع

جميع الأفراد لسلطة واحدة هي الإمكانية الوحيدة العقلانية لإحداث التوازن بين المصالح المتناقضة.العقد السياسي في نظريته يجد مبرره النظري في الحقيقة في اعتباره الحل الوحيد القادر على وضع حد لهذا الصراع الدائم بين الناس. فهذا الانطولوجيا الاجتماعية التي اعتمد عليها كل من هوبز وميكيافيلي في تحليلاتهما بالرغم من الاختلافات الواضحة بينهما على الصعيد المنهجي والصرامة العلمية.' تنتج نفس النتائج في تصورها لعمل الدولة؛في تحليلهما النظري ارجعا هذه النتيجة إلى الصراع الشخصي من اجل الوجود حيث أشارا إلى أن مهمة الدولة هي تحييد هذا الصراع الذي بدون فائدة المهدد للدولة.عند ميكيافيلي هذه النتيجة تظهر في الراديكالية التي معها ضد الفلسفة السياسة التقليدية تحرر امتحان سلطة السيد من أي اعتبار معياري أو أخلاقي.أما هوبز بالعكس هذا يترجم في الحقيقة عندما ينتهي بالتضحية بمضامين ليبرالية لعقده الاجتماعي لصالح الشكل التسلطي لتطبيقه السياسي.تتجه الفلسفة الاجتماعية الحديثة هكذا إلى اختزال عمل الدولة في ممارسة السلطة المحوسلة.لهذا نجد الحيز الكبير من كتابات هيغل اتجهت ضد هذا الاتجاه؛ لكن الموقع الخاص بل الوحيد لكتابات ايينا تستلهم النموذج الهوبزي لبناء مشروعه النقدي .